

في التاريخ القديم:

كيف أصبحت روما سيدة إيطاليا؟

بقلم المؤرخ الانكليزي ماندل كريجرتون

لم يكن باستطاعة روما طوال فترة الصراع بين الدخلاء والوطنيين ، أن تصبح أمة ماجدة الذكر رفيعة القدر ، ولو أنها ذهبت بعيداً في جعل نفسها مهوبة الجانب حامية الشوكية داخل حدود البلاد الإيطالية . وكما قدمنا في العدد الماضي ، كانت بسالة الدخلاء في محاربة أعداء روما سبباً من الأسباب التي جعلت الوطنيين يرضخون لمطالبهم في النهاية .

وجدير بنا - لكي نستطيع أن نستوعب جيداً حروب روما - أن نستوعب أولاً طبيعة الأقوام التي كانت تحوطها من جميع الجهات ؛ وأحسب أنك ما تزال تذكر أن في أسفل نهر الألب كانت سمجد بلاد الغالة ، وعلى امتداد الشاطئ الغربي (شمال روما) كانت توجد (بلاد الطستمان) ، وعلى الشاطئ الشرقي (جنوبي روما) كان عديد من المدن الزاهرة ، أسسها واستقر بها بعض المهاجرين من (الإغريق) ، وعلى امتداد ساحل جزيرة (سيشل) كانت توجد مدن إغريقية كبيرة ومثرية ، أما باقي إيطاليا فكان مقام قبائل لاتينية قحاة ساذجة - منها قبيلة اللاتين التي كانت تحيط بروما - تختلف اختلافاً كبيراً عن بعضها البعض في العادات والأخلاق ؛ وكانت هناك أيضاً بعض قبائل شغوفة بالحروب تسكن وديان (الابنين) ، فكانت القبائل اللاتينية تخاف بأسها وتخشى سطوتها كثيراً .

حروب الرومان الأولى:

نحن الآن في عام ٩٤٤م ، وقد عقد المستشار (سبيروس كاسيوس) بين روما واللاتين تحالفاً انضمت إليه بسرعة قبيلة (الهرنيين) ، وبدأ الحلفاء الثلاثة يسلاحون أنفسهم ضد أعدائهم ، وكانت روما غير موفورة القوة بادية الأمر ، فقد انشغلت حتى سنة ٥٠٥م بمقاتلة قبيلتي (الآك) و (الفولسكا) اللتين كانتا تقطنان بجوارهما . ونحن لا نعرف عن هذه الحروب إلا التزر اليسير ، الذي لا يعدو حكيتين عن هذه الحروب لا بأس من ذكرهما .

حكاية كايوس ماركوس كاريولينوس :

ترك حكاية هذا الرجل كيف أن الصراع الداخلي قد أضعف روما كثيراً، وترك أيضاً كيف تعلم الرومان إطاعة الآباء ، فقد كان (كايوس) هذا جندياً كبيراً من الوطنيين الذين ترأسوا الجيش الروماني أثناء محاصرته مدينة من إقليم النولسكا اسمها (كوريولاني) : فلما خرج أهل (فولسكا) لمقاتلة الرومان كان القتال في صف العدو فتمهقر ، فأغرت الهزيمة (كايوس ماركوس) على أن يتبعهم بمفرده إلى كوريولاني ذاتها، فلم يشعر إلا وقد غلقت عليه أبواب المدينة وشروحيده بين الأعداء، وكان المنتظر أن يسقط في يده فيستسلم للقضاء، ولكنه كان شجاعاً إلى حد أنه دفع الفولسكيين كلهم من لدن الأبواب وفتحها بيديه على مصراعيها للجيش الروماني الذي كان قد أدركه، وعلى ذلك سقطت (كوريولاني) في أيدي الرومان، وأعطى لقب (رجل كاريولينوس) مكافأة له على شجاعته الفائقة وإقدامه النادر.

عود إلى الوطنيين والدخلاء :

حدثت بعد ذلك في روما مجاعة كبيرة وسادها قحط شديد، فلما جاءتهم نجدة الحبوب من (سيبل) : أراد مجلس النواب أن يبيعها (الدخلاء) الفقراء بثمن يطيقونه ؛ ولكن (كايوس ماركوس) بطل القصة السابقة قال : «دعهم بلا حبوب حتى يخضعوا لكلام الوطنيين» ، فلما سمع الدخلاء ذلك ثاروا وغضبوا وقدموه للسحاكة أمام (الوكيلير) ، وأدرك (كايوس) أن إدانته ستثبت لاشالة، فهرب لاجئاً إلى ملك (فولسكا) وعرض عليه أن يشرط في خدمته ضد الرومان، فأعطاه ملك فولسكا جيشاً كبيراً ساربه فأصدأ (روما)، ووصل ذلك إلى علم الرومان فتوجسوا خيفة وأرسلوا إليه في طلب الصلح : أرسوا إليه بادی الأمر كبار رجال مجلس النواب، ولكنه رفض أن يصغي إليهم، ثم أرسوا إليه القساوسة ومعهم صور مختلف الآلهة ، فلم يصغ إليهم أيضاً ، وهنا أسقط في أيدي الرومان، ويئسوا من الوصول إلى سبيل للنجاة من هذا المأزق، وأخيراً قال واحد منهم : «ربما جاز أن يقبل ضراعة أمه وزوجه» ، وصادف هذا الرأي قبولاً ، فذهبت إليه أمه وزوجه وأطفاله وعديد من كبريات العقائل في ثياب الحداد، فلما رأى أمه أسرع لمقابلتها، ولكنها قالت له : «لا تقبلني حتى أعرف ما إذا كنت عدواً أم ابناً» ، فارتبك ولم يحرجوا أباً، وأزاء ذلك خرت أمه وزوجه وأطفاله على ركبهم وصرن يتوسلن إليه أن يخذل روما، فبكى وقال لأمه : «أمي .. إن هذا انصر كبير لك ولروما، ولكنه خراب كبير وعار عريض لولدك» ، ثم تركها وبدأ يعود بجيشه من حيث جاء، وبذا نجت روما ؛ ولم يلبث إلا قليلاً بعد ذلك حتى توفي بيز (الفولسكيين) .

حكاية (لوسيوس كوينكتيوس سينسينتيوس):

وهي حكاية أخرى كان يثقلها الرومان عن حرب لهم مع (الأكوين)، ومنها نستطيع أن نرى كم كانت عاداتهم بسيطة، وكيف أن جميع المواطنين كانوا يخدمون الولاية تاركين أشغالهم الخاصة إذا اقتضى الأمر: كان المستشار (ميفوسيوس) يحارب (الأكوين) حتى سدوا عليه المسالك على شفا جرف واد ضيق رأسى الانحدار، وقفوا على (فه) حتى لا يمكنه الخروج منه، وجاءت الأخبار إلى روما بهذا، فقال أحد أعضاء المجلس أخيراً: «ليس هناك إلا رجل واحد هو الذى يستطيع إنقاذ الموقف، هو (لوسيوس كوينكتيوس)، فلنجمعه ديكتاتوراً حتى تضع الحرب أوزارها. فكانت موافقة من الجميع، فأرسلوا إليه رسلاً وجدوه يحرق - بغير عباة - مزرعته التى يعيش عليها، فلما أن رآهم نادى على زوجته لتحضر له عباة، حتى يظهر احترامه للرسل. فلما أخبروه بأن المجلس انتخبه ديكتاتوراً ترك المخراث فى الحال وجاء معهم إلى روما حيث أمر كل من يستطيع حمل السلاح أن يستعد وينتظم فى سلك الجيش، على أن يحضر معه ما يكفيه من المئونة واثنتى عشرة عصاً، وإذ تم له ذلك سار بجيشه حتى شارب الأكوين ليلاً، وأمر جنده فأصدروا صيحة عالية أفرحت المستشار ورجاله، إذ علموا أن النجدة قد جاءت، ثم حاصر الأكوين وأمر رجاله أن يحفروا خندقاً حولهم، وأن يجعلوا من عصبيهم التى جاءوا بها كومة عالية على حد الخندق، وقفل الرومان كل ذلك ليلاً، فلما أصبح الأكويون وجدوا أنهم أصبحوا محاصرين بعد إذ كانوا حاصرين، فأسقط فى أيديهم وسلموا الديكتاتور، ونجا المستشار وجنده، وعاد لوسيوس إلى روما منتصراً، ولكنه ترك ديكتاتوريته فى الحال وطاد إلى مزرعته.

وكثيرون هم أمثال (لوسيوس كوينكتيوس) ممن كانوا يتركون مزارعهم ليصبحوا ديكتاتوريين إذا دعت إليهم حاجة الولاية، فإذا قضيت الحاجة عادوا إلى مزارعهم ومخاربتهم. وهو هذا الصنف الذى أكسب روما الممارك، وهو الذى خلق لروما عظمتها.

روما والطسقانيون:

تعبت روما من تلك الحروب مع (القولسكا) و (الآك)، ولكنها لم تكن فى الحق حروباً كبيرة، وكان ما يزال عليها رغم تعبها أن تراقب أعداءها الأقدميين من الطسقانيين، ولعلك ما تزال تذكر أن مدينة روما إنما أنشئت لتستطيع فحسب أن تمنع اعتداء الطسقان على اللاتين، الذين كانوا أقواماً عظيمة، عاشت فى المدن وبنت المباني الكبيرة وصنعت كثير من الأشياء الجميلة وتاجرت كثيراً وبنجاح، وكانت لهم سفن تجارية وحربية، وكانوا فى الأيام الأولى هم والقرطاجانيون

سادة البحر الأبيض المتوسط ؛ إلا أن الأتارقة من سيشل وإيطاليا ، رغبوا في أن يتاجروا أيضاً بهذه المياه ، فحاربوا الطسقانيين والقرطاجانيين ، وهزموا الطسقانيين في معركة بحرية كبيرة عام ٧٤ ق . م . وفي نفس الوقت هاجم الغاليون الطسقان من الشمال ، فارتبك الطسقان وبدأت قوتهم تنقلب ضعفاً ، فلما رأى الرومان منهم ذلك هاجمهم من الجنوب وبدءوا طام . ٥٠ ق م حصاراً قرب مدينة طسقانية إليهم وهي مدينة (في) ، واستمر الحصار عشر سنوات وأخيراً سقطت في يد القائد الروماني الكبير (ماركوس فيوريوس كاميلليوس) مع عدة مدن طسقانية ضمت إلى روما حتى وصلت الحدود الرومانية سهول (الكامينيا) . وقد عرف عن هذا القائد أنه كان رجلاً شريفاً في القتال ، فقد حدث مرة وهو محاصر (فاليردي) أن جاء إلى معسكره مدرس في المدينة ومعه صببية ، هم أبناء أكبر مواطني تلك المدينة ؛ جاء له هؤلاء الصبية على أنهم إذا صاروا في قبضة يده فإن أهلهم يرغمون على التسليم له ، ولكن كاميلليوس فضب غضبة شديدة من هذا المدرس الخائن الدنيء ، وشد يديه إلى ظهره ثم أسلمه للصببية وأمرهم أن يعودوا إلى المدينة ويقصوا على أهلهم قصة هذا المدرس اللعين ؛ فلما عرف آباؤهم هذا ، ظنوا في الرومان أحسن الظن ، وهان عليهم أن يسلموا لقائدهم باختيارهم ومن تلقاء أنفسهم .

الغاليون يهزمون الرومان

ولكن ما أسرع ما لحقت بالرومان هزيمة منكرة ؛ ذلك أن (الغاليين) كانوا هم الآخرين يهاجمون (الطسقانيين) من الشمال ، بينما كان الرومان يهاجمونها من الجنوب ، فلما رأى الرومان ذلك حاولوا أن يساءوا عليهم الطسقانيين ، وشعر الغاليون بذلك فساروا إلى الرومان وهزموهم هزيمة بالغة على نهر (الأليا) سنة ٣٠٩ ق م ، وتقدموا إلى روما ذاتها .

الغاليون يأخذون روما :

فقد الرومان في المعركة كثيراً من رجالهم حتى إنه لم يبق لديهم أي أمل في حماية روما ذاتها ! فلما رأى الرومان من الآمال ذلك هربوا كلهم إلا زراً يسيراً من أشجع الجنود ، أغلقوا الكابيتول عليهم - وكان الكابيتول هذا أحصن قلعة بروما - طازمين على ألا يسقط الكابيتول ما بقي فيهم نفس يتردد ؛ وبقي فيه أيضاً قليل من الوطنيين الكهول الذين صمموا على ألا يغادروا في كبرهم مدينة عاشوا فيها طوال حياتهم ، فآلبسوا أنفسهم أحسن ما عندهم من ثياب وجلسوا صموتا على المقاعد في مجلس النواب ! فلما اندفع الغاليون إلى المدينة ولم يجدوا بها أحداً إلا هؤلاء الأشياخ الذين جلسوا صموتا ، دهشوا لذلك وحاروا ، من يحاربون ؟ وماذا يفعلون ؟ والمدينة خالية إلا من هؤلاء الأشياخ ؛ وأخيراً بدأ أحد هؤلاء الغاليين يعبث بشعرات ذقن قسيس يدعى (ماركس بايرس) فغضب القسيس لهذا الاعتداء وضرب العايب بصولجانه العاجي الذي كان ممسكاً به في يده ، وكان هذا

كافياً لأن يندفع الغاليون على الأشياخ فيقتلوهم ويشعلوا النار في المدينة . وحاول الغاليون بعد ذلك أن يأخذوا الكابول ، ولكنهم لم يصلوا إلى أية طريق يصعدون منها له . لأن الصخرة التي أقيم عليها كانت رأسية الانحدار ؛ وكشفوا لها أخيراً عن طريق ، وفي ذات ليلة تسالت عصابة منهم تصعدوها في منتهى الصمت لئلا يشعر بهم أحد من الرومان . وكان في الكابول بهض الأوزات ، منذرة إلى الإله (جوتو) ، فلما كاد الصاعدون يصلون إلى القمة ، بدأت الأوزات (تصبح) فاستيقظ روه إلى شجاع هو (ماركوس مانليوس) في الوقت الذي كان فيه طليعة الغال على وشك الانتهاء من تسلق الصخرة ، فلما رآه دفعه إلى أسفل بدرعه فسقط إلى الأرض فوق كثير من الذين كانوا ينتظرونه ، ثم استيقظ الرومان كلهم على الضجة الحادثة ، وكان لهم من الوقت ما أعانهم على طرد الغالين كلهم ، وبذا أُنقذ الكابول ؛ فلما رأى الغاليون أن سقوط الكابول مستحيل عادوا إلى بلادهم ، مكتفين بما حملوا معهم من الغنائم والأسلاب .

آثار حرق روما:

وهو غزو روما وحرقها هذا ، الذي جعلنا لانعرف عنها من الأخبار الصحيحة في تاريخها القديم إلا الترتير اليسير ؛ فقد كان القسس في تلك الأيام يكتبون مذكرات بكل ما يحدث عاماً بعد عام ويحتفظون بها في المعابد والهيكل ، وقد أحرق الغاليون المعابد فلا بد أن تكون كل هذه المذكرات أحرقت معها ، وكذلك السجلات الرسمية . ونحن في الحق لانستطيع أن نجزم قطعاً بأي خبر قبل هذا التاريخ ، ولكننا نستطيع الفصل في صحة الأخبار بعد ذلك ، لأن الأشياء بدأت مصادرها تتأكد وتعمد ، كما بدأنا نعرف كثيراً من الأشياء التي كان يسلمها الرومان معرفة حقيقية لا شك فيها .

ماركوس مانليوس والوطنيون

وعاد الرومان بعد جلاء الغال ليجددوا مدينتهم خربة ، فحدثوا بأذى الأدر في تركها والذهاب للإقامة في مدينة (في) ، ولكن (كاميليوس) يفرهم على أن يبقوا بها ويبنوا مدينة جديدة بدلاً منها . وكان هذا عبئاً ثقيلاً ألقى على عاتق الدخلاء الفقراء ، وواجباً عانوا من جرائه شقاءً كثيراً ، واستمدانة فاحشة ، حتى لقد حدث ذات يوم أن ائتمسوا إلى السجن جندي شجاع لم يجزه عن دفع دينه ؛ وسمع بذلك ماركوس مانليوس الوطني الذي أُنقذ الكابول فخرن لذلك ولم يسعه إلا أن يدفع الدين ثيابة عنه وبذلك أُنقذه ؛ وآلى مانليوس على نفسه أيضاً ألا يترك دخيلاً يلقى إلى غيابة السجن في نظير دينه مادام فيه نفس يتردد وما دام عنده ولو انقليل من المال ، فأحبه الدخلاء من أجل عاطفته النبيلة هذه ، وتخوف منه الوطنيون كثيراً ، فاتهموه

بأنه يحاول أن يعيد الملكية وحكموا عليه بالإعدام سنة ٣٨٣ ق م ، ومن هنا تعلم الدخلاء أن ينظروا إلى وجود القوانين التي تحميهم ، لا إلى وجود الرجال الذين يحمونهم .

نتائج مجيئ الغال :

ولم يكن غزو الغال لروما بلاء حقيقياً كبيراً ؛ حقاً لقد عانوا منه كثيراً ، ولكن ليس بالقدر الذي عاناه (الآ كويون) أعداؤهم الأقدمون ، والذين - منذ غزو الغال لهم - لم يعا كسوا الرومان مرة أخرى ، فضلاً عن أن الرومان قد تعلموا كذلك أن يحسنوا جيوشهم ، وأن يكونوا أكثر حذراً في المعارك ، وكان من عادة الغالين أن يخرجوا من بلادهم على امتداد نهر (البو) عاماً بعد عام ، ليعتدوا على البلاد التي يمرّون بها ويعينوا فيها مفسدين وغانمين أسلاباً . ولكن الرومان تعلموا من هزيمتهم الأولى ؛ فما عادوا يخرجون لمقابلتهم في سرعة وطيش واندفاع ، بل كانوا يرجعونهم قليلاً قليلاً حتى خاف الغاليون أن تنتهي بهم القهقري إلى داخل بلادهم ؛ وبعد عام (٣٥٠ ق م) لا نسمع بنزواتهم لروما ، وصارت القبائل تنظر (إلى روما) بعد إذ ازدادت قوتها وقويت شوكتها بحروبها معهم ، على أنها حاميتهم .

بداية الحروب السمنية :

سحق الغاليون - إلى جانب الآ كويين - كثيراً من القبائل الإغريقية التي كانت تسكن المدن الواقعة جنوبى روما في الإقليم المسمى إقليم (كامبانيا) ، وكانت هذه المدن غاية في الضعف ، وفي نفس الوقت غاية في الثراء ، حتى إنه عند ما جلا عنها الغاليون ، هاجمتها قبيلة لاتينية تسمى (قبيلة السمنية) ، كانت تعيش في جبال الإيبين وسط إيطاليا ، وأثلثت تلقاً هائلاً مدينة (كايوا) ، فأرسلت الأخيرة إلى روما في طلب النجدة سنة ٣٤٣ ق م ، وأنجدها روما فبدأت الحروب السمنية التي دامت أكثر من خمسين عاماً ، أي إلى عام ٢٢٠ ق م ، وهي نتيجةها التي كانت ستقرر ما إذا كان سيقدر لروما أن تحكم إيطاليا كلها أم لا .

كان (السمنيون) أضخم أعداء روما وأشجعهم ، وما لبثت الحرب السمنية الأولى أن انتهت دون أن يكون لها نتائج خطيرة ، وكان كل من الطرفين راغباً في عقد تحالف ، وخاصة روما التي كانت في ذلك الوقت قد بدأت تخاف عداوة أحلافها (اللاتين) .

حرب اللاتين :

والآن بعد إذ رحل الغاليون عن اللاتين ، لم يرد اللاتين أن يظلوا تابعين للرومان

فأرسلوا إلى الرومان سنة ٣٤٠ ق م يطلبون منهم مساواتهم بهم، ولم يعترضوا على بقاء روما عاصمة الحلف، إلا أن مجلس النواب يجب أن يضاعف عدده ويجب أن يكون هناك مستشاران من اللاتين كما يوجد مستشاران من الرومان. ولكن لم يوافق الرومان على هذه المطالب، فنشأت حرب اللاتين الكبيرة لتقرر أي المتحاربين هو الذي سيحكم الآخر؛ ودامت هذه الحروب ثلاث سنوات (٣٤٠ - ٣٣٨) وكانت شديدة جداً وقاسية للغاية. وكانت كبرى معارك الحرب عند سفح جبل (مونت فيزيوس)؛ وكان النصر فيها مشكوكاً فيه لمدة طويلة، ولكن المستشار الروماني (ديسيس مس) ألهم أن الجانب الذي سيفوز هو الذي يقدم قائده نفسه للموت، ومن ثم فقد غلب رأسه بعباءته واندفع بين صفوف الأعداء فقتل، وفعلوا بدأ الرومان ينتصرون قليلاً قليلاً.

قسوة مانليوس :

وربما كان في مكتنتك أن تقدر كم كان الرومان قساة أصلاً، إذا سمعت تلك الحكاية التي حكيت عن المستشار الآخر تيسيو مانليوس، فقد أصدر أمراً بأنه لا يجوز لأي إنسان أن يتحارب قديماً مع أي عدو له، فحدث ذات يوم أن ابنه شخصياً تحداه أحد الأعداء فتعارك معه وقتله، وأتى بجنته معه، فلما سمع بذلك والده أمر به أن يشق لعصيانه ووقف بنفسه يرقب تنفيذ الحكم؛ ومع أن هذا الحكم قد أرب الناس كلهم فانهم اعتقدوا أن مانليوس كان عادلاً إلى الحد الأقصى.

كيف حكمت روما اللاتين ؟

وإذن فقد غزت روما اللاتين وأخذت كل مدائنهم. وقد عرفت كيف تخضعهم، فأعطتهم امتيازات مختلفة، وعلمتهم كيف ينظرون إلى روما، وإليها قطع، وكيف يعنون بها أكثر مما يعنى أحدكم بالآخر. كما أنها في نفس الوقت لم تنظر إليهم كأجانب عنها فقد كانوا حلفاءها، بل لقد تعاركو حلفاء جنباً إلى جنب واستعملوا نفس الأسلحة، وكانوا في السلم إخواناً، فلما عردوا أخضعتهم ولم تعاملهم بخشونة، وإنما عملت فقط على ألا يقوموا في وجهها مرة أخرى، وحسنت تجارتهم على حساب ذلك، فلم تسمح لمدينة بالتجارة المباشرة مع أخرى، وإنما جعلتها كلها تتاجر مع روما، ومن هنا أصبحت روما عاصمتهم التجارية إلى جانب كونها العاصمة السياسية والحربية. ومنتهم كثيراً أن يصيروا مواطنين رومانيين، إذا أبقوا على ولائهم لها، فبدؤوا ينسبون أنهم غزوا، وصاروا يفخرون بأن رومائهم.

وهكذا تعلمت روما كيف تربط بها البلاد التي تغزوها، حتى إنها قلما فكرت في الوقوف

في وجهها، ويجب أن نذكر أن روما كانت بعد ذلك في غزوها الخارجي تفعل نفس ما فعلت مع اللاتين، وبذا جعلت إيلاتها كلها تطلع في أن يكون أهلها مواطنين رومان، فيكون ذلك لهم خير جزاء على إخلاصهم لها.

الحرب السمنية الثانية :

ولقد كان من حظ روما أن صفت حسابها مع اللاتين وجعلتهم حلفاءها اختياراً، فقد بدأت عام ٣٢٧ ق م الحرب السمنية الثانية التي دامت إلى عام ٣٠٠ ق م، أي مدة خمس وعشرين سنة، وقاتل فيها كل من الفريقين بشدة، لأنهما كانا يعلمان أن المنتصر منهما هو الذي سيحكم إيطاليا، وكان للسمنيين قائد شجاع اسمه (كايوس بونتيس) استطاع مرة أن يهزم الجيش الروماني بحيلة غريبة، فقد جعل جيشه يتظاهراً أنه هرب فتبعه الجيش الروماني من أقصر طريق ليجد أنه قد حوصر وأغلق عليه الوادي وحامله السمنيون من جميع الجهات وهو ليس بمستطيع مخرجاً، فلم يسمعهم إلا أن يعترفوا بالهزيمة للسمنيين الذين عقدوا معهم صلحاً وأطلقوا سراحهم، ولكن هذا الصلح لم يقره البرلمان في روما، وكان اعتراضه أن الصلح القانوني هو الذي يصدر عن مجلس النواب فقط، وأرسلت الولاية المستشارين اللذين عقدا الصلح كأميرين إلى (بونتيس)، فرد بونتيس بقوله إنه كان في استطاعته أن يسحق الجيش الروماني بأسره لو أراد، ومن هنا كان يرغم المجلس على عقد الصلح، فإذا كان المجلس لا يرضى بالصلح فليرسل الجيش ثانية إلى الممر (كوديوم) بسلاحه كما كان، وتستمر الحرب، ولكن الرومان أبوا ذلك قائلين إنهم أرسلوا إليه القائدين اللذين ارتكبا الخطأ، وإن هذا هو كل ما يستطيعون عمله، فأعاد بونتيس القائدين واستمرت الحرب من جديد، ولم يكن رأى المجلس صائباً هذه المرة، ولكنهم كانوا قوماً يعتقدون أن الواجب يقتضيهم أن ينفذوا القانون بحروفه.

فلما استمرت الحرب تخوف الطسقانيون من قوة روما، وعملوا على شلها فساعدوا السمنيين، ولكنهم هزموا أيضاً، وأخيراً في عام ٣٠٤ ق م اضطر السمنيون إلى إلقاء السلاح وعقد الصلح.

الحرب السمنية الثالثة :

ولكن هذا الصلح لم يستمر طويلاً، فقد بدأت الحرب السمنية الثالثة عام ٣٠٠ ق م. وفيها نرى كل الأقوام من إيطاليا التي كانت حتى ذلك الوقت يقاتل بعضها بعضاً، قد اتحدت ضد روما التي أصبحت قوتها تخيف الجميع فرادى ومجتمعين، فكانت هذه الحرب صراعاً يائساً من السمنيين والطسقانيين والغاليين، للحد من سلطان روما وعتوها. وكانت كبرى المعارك سنة ٢٩٥ في مدينة (سلتيونيوم)، وفيها انتصر الرومان عليهم جميعاً. وبعد ذلك بعامين أسر الرومان قائد

السمنيين الشجاع (كابوس بونتيوس) ولم يعاملوه بأية شفقة بل قتلوه ؛ ولقد أظهر الرومان أنفسهم دائماً بظهر القامى ضد من يثور في وجههم ، وكانت فعلاً هذه القسوة سبباً آخر من الأسباب التي جعلت الأمم التي تغزوها روما لا تثور ضدها غالباً .

الحرب مع المدن الاغريقية :

والآن وقد قررت الحرب السمنية الثالثة أن روما هي سيدة إيطاليا الجنوبية بعد إذ أخضعت السمنيين والطسقانيين وقهرت الغاليين ، لم يبق أمامها إلا المدن الاغريقية لتسود روما كلها . كانت هذه المدائن في زمن ما قوية جداً وكانت مازال غنية جداً ، كانت غنية إلى حد أنها لم تكن تعنى بالحرب والدفاع عن نفسها ، بل تؤجر غيرها على القيام بذلك نيابة عنها ، وكانت من أهم هذه المدن مدينة (تارتم) على خليج تارتم الكبير في جنوب إيطاليا ، وكان الرومان يساعدون بعض المدن التي تجاور تارتم ضد أعدائها ، وكان أهل تارتم يحسدون روما على قوتها فلما عرفت روما ذلك أرادت أن تؤدبهم ؛ ففي ذات ليلة بينما كان القوم كلهم جالسين في (المسرح) على شاطئ البحر في الهواء الطلق حيث المقاعد تشرف على الماء ، ليشاهدوا إحدى الروايات التمثيلية التي كان الاغريق بها جدمغرمين ، إذ رأوا فجأة عشر سفن رومانية لصق الميناء ، فاندفعوا في عنف وهياج إلى السفن الرومانية وهاجموها وحطموها ؛ وابتدأت الحرب عام ٢٨٢ ق.م .

الحرب مع فيرهمس :

ولكن التارتيين كانوا يخافون الحرب بأنفسهم ؛ ولم يكن في إيطاليا كلها من القبائل الأخرى من نصلح لأن تقف أمام روما ؛ فلم يجدوا بداً من أن يتجهوا إلى بلاد الاغريق ويطلبوا مساعدة (فيرهمس) ملك (ايريس) التي كانت على الشاطئ الغربي من إغريقيا ، وهي أقرب جزء إلى إيطاليا . و (فيرهمس) إذاً تبحث له الفرصة لتحقيق أمنيته ، فقد كان على صغر سنه يطمع في أن يكون غازياً كبيراً . وكان حقاً قائداً جيداً فأحضر معه جيشاً من الجنود المدربين ، وقصد إلى إيطاليا . وكان شيئاً خطيراً بالنسبة للرومان أن يثقوا ويتقاتلوا مع أناس يعيشون خارج إيطاليا ، لأنهم كانوا مضطرين إلى الحرب بطريقة دفاعهم الخاصة التي لم يجربوها إلا مع أهل إيطاليا .

نزل فيرهمس إلى الأرض الإيطالية عام ٢٨٠ ق.م في جيش كبير ، فتصدى له الرومان ، فهزموا عند (هيراكلس) على نهر سيريس الصغير ؛ لأن قسم الراكبين في جيشهم لم يكن جيداً مثل (سوارى الاغريق) ، وفزعت خيلهم كثيراً عند مارات فيلة جاء بها الاغريق معهم ؛ ولكن على الرغم من أن فيرهمس كسب المعركة فإنه خسر كثيراً من جنوده حتى لقد قال : قليل من مثل هذه الانتصارات ثم أهزم ! ! وذهب بعد ذلك إلى روما وحاول أن يسعى في الصلح بشروط جيدة ، له

ولتأثرتم، فأرسل إليهم رجلاً لبقاً جداً اسمه (سينيز) كان دائماً يغير من وجهة نظر المجلس الاغريقي؛ وكان له عليه تأثير كبير، ولكن نبيلاً رومانياً - كان مستشاراً ومراقباً وتقاعداً وقد تقدمت به السن - أمر بنفسه أن ينقل إلى مجلس النواب الروماني، حيث توصل إلى المجلس ألا يسمح بصلح ما دام فيرهس لا يزال موجوداً في إيطاليا. وأخذ المجلس برأيه وطاد (سينيز) بهذا الرأي إلى فيرهس، فلما سمعه قال: «من العبث المقاتلة مع روما لأن مجلس نوابها هو مجلس ملوك لا مجلس نواب!!»، وفي العام التالي هزم فيرهس الرومان مرة أخرى، ولكنهم لم يسلموا له؛ فبئس فيرهس وجلاء عن إيطاليا إلى سيشل وقاتل هناك عامين، ثم عاد إلى إيطاليا، وكان جيشه أضعف بكثير مما كان عليه؛ وكان الرومان قد لاحظوا ضعف «راكبيهم» فدربوهم وسلحوهم جيداً، كما عودوا أنفسهم على المقاتلة ضد القبيلة، حتى صاروا يمتطيون الوقوف في وجه فيرهس وقفة الند؛ وفي سنة ٢٧٥ ق م نشبت بين الجيشين معركة غلب الرومان فيها فيرهس، فرجع إلى ايرس وقد فقد جنوده تقريباً، وانتهت بذلك آماله في الفتح والغزو بعد هذا الاندحار الشنيع، وبعد ذلك بثلاث سنوات قتل في إغريقيا بحجر ألقتة امرأة على رأسه حينما كان يحاصر أرجوس.

حكم روما لإيطاليا:

بعد جلاء فيرهس لم تجد روما أية صعوبة في أخذ كل جنوب إيطاليا. والآن فهاهي ذي روما تحكم كل الأراضي الواقعة جنوب خط يرسم من النهر الصغير (ماكرا) الواقع على الساحل الغربي إلى (الرايكون) على الساحل الشرقي، وفوق هذا الخط كانت بلاد الغال، وكانت روما ذاتها مدينة، حكمت نفسها وحكمت كل المدن الإيطالية، لأن إيطاليا كانت مقسمة إلى أقاليم يتبع كل إقليم منها مدينة، وصارت الحال في إيطاليا هكذا: كان المواطنون الرومان يحكمون كل الباقين، وصار كل من غير المواطنين يحب أن يكون مواطناً رومانياً؛ وبعد الرومانيين يحيى (اللاتين) الذين كان لهم بعض حقوق المواطنين الرومان؛ وكانوا يأملون في الحصول على بقية امتيازات الرومان بمرور الزمن؛ وبعد اللاتين يحيى الإيطاليون الذين كانوا يحكمون مدنهم التي يعيشون فيها، ولكن كان عليهم أن يطيعوا روما وأن يخدموا الجيش الروماني عندما كان يحتاج إليهم. وكانت هناك طريقتان بواسطتهما احتفظت روما بسلطتها على إيطاليا، ويجب أن نذكر دائماً هاتين الطريقتين فقد كانتا دائماً الوسيلتين اللتين استعملتهما بعد ذلك في كل مستعمراتها. وهما

١ - إنشاء المستعمرات الرومانية.

٢ - إنشاء الطرق.

المستعمرات الرومانية

المستعمرات كما تعرف هي أراض من بلد يستوطنها أناس من بلد آخر، ليعيشوا فيها باستمرار كأنها جزء من وطنهم. فكان الرومان يأخذون جزءاً من الأراضي التي يغزونها ويرسلون إليها مواطنين رومانيين ليعيشوا فيها ويكونوا هناك ولاية رومانية لأنفسهم. ومن هنا فإن عدداً من (روميات) صغيرة قد انتثر في أنحاء إيطاليا، وكانت روما تستطيع على الدوام أن تعتمد على مواطنيها في المستعمرات، لأن الروماني الوطني لم يكن ينسى روما مطلقاً، وكانت هذه المستعمرات حاميات تحفظ السلم بين الإيطاليين، ولكنها أحسن من الحاميات العسكرية لأنها كانت حاميات من رجال سلعين يشتغلون يومهم في مزارعهم ويعلمون الآخرين أن يحذوا حذوهم، ومن هنا أحب الإيطاليون الرومانيين وحاولوا أن يكونوا مثلهم، وكانوا راضين بأن تحكمهم روما.

الطرق الرومانية:

كان الرومان صنّاع طرق ماهرين، إذ كانوا ينشئونها بالجودة والمتانة التي تنشأ بها الطرق في الوقت الحالي وب نفس الطريقة أيضاً، وكانت هذه الطرق تنفرع من روما إلى سائر أنحاء إيطاليا، ومن هنا كان في استطاعة روما أن ترسل الجند إلى أي مكان يحتاج إليهم، ويمكنها بسهولة أن تلتقي الأخبار عن مستعمراتها، فكانت هذه الطرق وسيلة جميلة لحفظ النظام، وقد يستطيع القاري أن يتصور إيطاليا في ذلك الوقت، ويذكر أن هذه الطرق كانت منتشرة، ليعرف أنها كانت عبارة عن سلاسل تقيد المدن بروما.

أخلاق الرومان القدماء:

هكذا كانت روما تحكم إيطاليا. وكانت أيام حربها مع السمنيين وفيهرس مأزق أيامها، لأنه كان ما يزال على الرومان أن يشتغلوا بجهد ليغتنوا، وكانوا أمناء وشجعان ونبلاء، وهناك كثير من القصص التي تحكي لنا كيف كان الرومان القدماء يحيون، فلم يكن قوادهم وسياسيوهم أعظم ولا أغخم في مجرى حياتهم من الناس الآخرين، واعتادوا حيناً كانت ترسل الهدايا إليهم أن يرفضوها. حدث مرة أن أرسل السمنيون إلى القائد الروماني (مانليوس سيريوس) هدية من الذهب، فلما حضر الرسل وجدوه في مزرعته يطبخ لنفسه طعام غدائه الذي لم يكن يزيد على لفته تشوى في النار، ولم يكن لديه إلا طبق من الخشب يأكلها فيه! فلما قدموا له الهدية الذهبية رفض (سيريوس) أن يأخذها قائلاً: « ليس الشرف في حيازة الذهب إنما هو في سيادة من يحوزونه ».

ولكن ما أسرع ما يأتي الزمن الذي يثرى فيه الرومان من الحروب الخارجية، وما أسرع ما تنتهي تلك الحياة الساذجة البسيطة التي كانوا يحيونها مما ستراه في الجزء القادم.